سأقارب الموضوع بتعريف «العولمة» من حيث علاقتُها المباشِرة بعوائق التنمية الثقافية. ولهذا لن يعنيني هنا موضوعُ الشركات المتعدِّية الجنسية رغم أنّه هو الأساسُ في مفهوم العولمة، بل يعنيني أمران اثنان: ١ ـ العولمة من حيث ارتباطُها بالنظام العالمي الجديد الذي تسعى الولاياتُ المتحدة وغيرُها إلى فرضه، بما يؤدّي إلى تعميق اندماج الاقتصادات والسياسات العربية في السوق العالمية اندماجاً تبعياً ومن موقع تكون فيه تلك السياساتُ والاقتصاداتُ متخلِّفةً؛ ٢ ـ والعولمة من حيث ادّعاؤها فرضَ نمطٍ من القيم الحضاريّة ذات هويّةٍ محدَّدةٍ، باسم «العالمية».

«أهلاً بكم إلى الحضارة» (إعلان نُشر في مجلة نيويوركر الأميركية، ١ حزيران ١٩٩٨)

WELCOME TO CIVILIZATION

تجربة «الآداب» داراً ومجلة

العولمة وعوائق التنمية الثقافية*

سماح إدريس

والأمران الاثنان يشيران إلى أنّ العولمة قد تكون، بشكل أساسيّ، تعبيراً ملطّفاً مخفّفاً euphemism ـ إنْ لم يكن مُبَرْقَعاً ـ عن رغبة دول الغرب الصناعي ـ وتحديداً الدولِ السبعِ الكبرى G7 التي تضم (بحسب إسماعيل صبري عبدالله) المقارّ القانونية لـ ٤٢٦ شركةً كوكبيةً من أصل أكبر ٥٠٠ شركةٍ كوكبيةٍ في العالم[١] ـــ أقول: قد تكون العولمة تعبيراً ملطّفاً عن رغبة هذه الدول، وفي طليعتها الولاياتُ المتحدة، في إسباغ معنًى تقنيٍ وتحديثيٍ بل وإنسانيٍّ على ما هو (في حقيقة الأمر)

* ـ نصّ البحث الذي ألقاهُ رئيس تحرير مجلة الآداب في مؤتمر «العولمة وقضايا الهوية الثقافية» الذي عقده المجلسُ الأعلى للثقافة في القاهرة بين ١٢ و ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٩٨.

١ ـ إسماعيل صبري عبدالله: «العولمة والاقتصاد والتنمية العربية»، مجلة **فكر ونقد** (تونس)، مارس ١٩٩٨، ص ٥١.

إعادةُ هندسةٍ لاقتصاد العالم بحيث يواصِل الشمالُ سيطرتَه على مواردِ الكوكبِ بصورةٍ عامةٍ وعلى موارد الجنوب ـ ومنه وطنُنا العربي ـ بصورة خاصة. ويترافق ذلك مع منع الجنوب ـ وعلى رأسه وطنُنا العربي ـ من تحقيق تنميته المستقلّة، فيبقى تابعاً مستهلِكاً، لا فاعلاً مشارِكاً في اقتصاد العالم وتطوّرِه العلمي والتقني والثقافي.

العائق الثقافيّ الأوّل الذي تنصبه العولمةُ المؤمْرِكةُ في وجه التنمية الثقافية العربية: هو المساهمةُ في ضرب الإنتاج والاستهلاك الثقافيّين العربيين، لما يشكّلانه من عاملِ تحديثٍ، وتوعيةٍ قوميةٍ على مخاطر التبعيّة، ومن حثٍّ على كسر جدار الهيمنة العسكرية والاقتصادية والسياسية الأميركية.

عام ١٩٩١ صرّح جورج بوش، رئيس الولايات المتحدة، أنّ ضرب العراق يشكّل «دفاعاً عن نمط حياتنا» our way of life. والمقصود، كما لا يَخْفى على أحدٍ منكم، هو بقاءُ تدفّق النفط العربي إلى السوق الأميركيّة بسعره الزهيد الظالم والمجحف للعرب، وبما يشكّل تفوّقاً أميركياً نفطياً هامّاً على اليابان وأوروبا الغربيّة. والمقصود أيضاً بضرب العراق هو منعُ تكوّنِ قوةٍ إقليمية قد تشكّل مساساً بهيمنة الولايات المتحدة المطلقة على النفط، أو تهديداً ولو بسيطاً لحليفتها إسرائيل. وفي رأيي أنّ هدف الولايات المتحدة في ضرب العراق يبقى هو هو، بغضّ النظر عمّا إذا كان النظامُ العراقي قمعياً أم ديموقراطياً... بل نحن نعلم أنّ الولايات المتحدة كانت تساعد العراق طوالَ سنواتِ حربه ضد ايران، وأنّها لم تحرّكْ ساكناً حين أُبيد أشقاؤنا الأكرادُ وغيرُهم في «الأنفال» وحلبجة عامَيْ ١٩٨٧ و١٩٨٨ على التوالي.

وكأنّ القمع والإرهاب اللّذين مورسا على العراق أعواماً طويلة لم يقضيا على طاقة الحياة والخلق والإنتاج فيه، فجاء قصفُ هذا البلد وحصارُه منذ سبعة أعوام ليؤجّجا حالَ الإضمار الثقافي هناك. والنتيجةُ اليوم أنّ العراق، بلدَ الثالوث الشعري المؤسِّس (السيّاب ونازك والبياتي)، فضلاً عن سعدي والجواهري وبلند، وبلدَ الريادة الروائية مع جبرا وغائب، وبلدَ الخصوبة القصصية مع مهدي عيسى الصقر وأحمد خلف ومحمد خضيّر، قد تحوّل اليومَ إلى بلد يبيع مثقفوه ـ أو مَنْ بقي منهم فيه ـ كتبَهم ولوحاتِهم في الشوارع من أجل شراءِ علبةِ حليبٍ أو دواءٍ لأطفالهم. ولعلّ بعضكم قد اطلّع على ما كتبه إلى مجلة **الآداب** كتّاب عراقيون[1] يحكونَ فجاعة ما آلَ إليه فرضُ «نمط حياة بوش» على الشعب والمثقفين في العراق، بعد ما فَرَضَهُ عليهم وعلى الكويت الشقيقة النظامُ الحاكمُ في العراق.

غير أنّ فرضَ النظام العالمي الجديد على العراق لم يقتصر على إلحاقِ تدميرٍ شبهِ كامل بالإنتاج الثقافي العراقي ـ وهو إنتاجٌ رئيسيٌّ في الثقافة العربية المعاصرة ـ بل تعدّى ذلك إلى ضرب ركيزةٍ هامة في **الاستهلاك الثقافي العربي بمجمله**.

فالمعلوم أنّ القارئ العراقي «بالوعةُ كتب»، يَقْرض الإنتاجَ القادم من شتّى أنحاء الوطن العربي، ولاسيما الإنتاج المعاصر في النقد والشعر والرواية. وليس من الممكن أن نتحدث بالتفصيل عمّا كان العراق يستهلكُه قبل الحصار من إنتاج دار الآداب وحدها (وهو ما ينطبق على دورٍ أخرى كثيرة)؛ يكفي مثلاً أنّ العراق عام ١٩٨٨ طلب ١٠٠٠ نسخة من روايَتَيْ جبرا: **صراخ في ليل طويل**، **وصيّادون في شارع ضيّق**، وألفاً أخرى من كتابٍ نقديّ لمحسن جاسم الموسوي، وما بين مئتيْ نسخة إلى أربعمئة نسخةٍ من كلِ روايةٍ عربيةٍ ومترجمة ومن كل ديوان شعر. ولا أريد، بالطبع، أن أعود إلى سنواتٍ ما قبل الحصار بعشر سنوات أو عشرين سنةً لأنّ هذا الأمرَ لن يَدخل في إطار موضوعي الضيّق الذي ألْزمتُ نفسي به. ولكني أَخْلص هنا إلى أنّ ضرب العراق وحصاره لم يضربا ويحاصِرا الإنتاجَ الثقافيّ العراقي فحسب، بل **ضربا وحاصرا أيضاً الاستهلاكَ الثقافيّ العربيّ برمّته**، وضربا أيضاً وحاصرا درباً أساسياً من دروب التواصل بين المثقفين العرب أنفسهم.

لكنّ العراق ليس البلد العربيّ الأوحدَ الذي فَرَضتْ عليه الولاياتُ المتحدة نمطَ الحياة البوشيّة وسُلَّمَ القيم الواحديّة المحجَّبةِ بغلاف الإنسانية والكونيّة السمحاء. بل ابْتُلِيَتْ ليبيا هي الأخرى بمصيرٍ لا يضاهي مأساويةَ المصير العراقي من حيث الكُلْفَةُ البشريةُ، ولكنّه ذو نتائجَ فادحةٍ على المستوى الاقتصادي والثقافي. فبعد أن اتُّهمتْ بريطانيا والولاياتُ المتحدة ليبيا بتفجير طائرة «پان أميركان» فوق لوكربي في اسكتلندا عام ١٩٨٨، صدر قرارا مجلسِ الأمن الدولي رقم ٧٤٨ عام ١٩٩٢ و٨٨٣ عام ١٩٩٣ بفرض الحصار على

---

١ ـ راجع مثلاً: ليث الصندوق (**الآداب** ٣/٤، ١٩٩٦، ص ٨٤)، وأحمد خلف (**الآداب** ١/٢، ١٩٩٦، ص ١٠٩ ـ ١١٠)، وخالد الخزرجي (**الآداب** ٧/٨، ١٩٩٦، ص ٨٦).

ليبيا، رغم أنّه لم يكن ثمة إثباتٌ على ضلوع ليبيا بعملية التفجير، ورغم أنّ الحصار الذي بلغت كُلفَتُهُ بحسب المصادر الليبية واحداً وعشرين ملياراً من الدولارات[1] لم يكن ذا مبرِّرٍ قانوني بدليل إصدار المحكمة الدولية في لاهاي مؤخّراً قراراً يؤكّد أنّ مسؤولية التفجير إنما هي من اختصاص هذه المحكمة لا مجلسِ الأمن الدولي المنصاعِ لرغبة الولايات المتحدة وبريطانيا!

أيّاً يكن الأمر، فإنّ ليبيا كانت حتى عام ١٩٨٨ من أكثر البلدان العربيّة استهلاكاً للكتاب العربيّ، حتى لو لم تكن إلا من أقلّها إنتاجاً لهُ. وفي وسعنا العودةُ إلى فواتير دار الآداب ومجلة **الآداب** لنقارن بين ما كانت تطلبه السوقُ الليبيةُ عامَيْ ١٩٨٩ و١٩٩٠، وما صارت تطلبه عام ١٩٩١. فقد كانت ليبيا قبل الحصار تشتري ما لا يقلّ عن ٥٠٠ نسخة من كل ديوان شعر أو روايةٍ أو روايةٍ مترجمة أو من كل عدد من مجلة **الآداب**، لكنّ طلبياتها عام ١٩٩١ باتت لا تتعدّى الأربعين نسخةً من الكتب الجديدة، وتوقّفتِ الآن تماماً عن استيراد الكتب والمجلة بعد أن رفضتْ كثيرٌ من دور النشر العربية إرسالها إليها قبل أن تسدّد قيمةَ المستحقّات السابقة.

قبل أن أنتقل إلى الحديث عن العائق الثقافي الثاني أطرح عليكم ما أراهُ مفارقاتٍ قد تجدونها جديرةً بالاستقصاء. فلو عدنا إلى ما يقوله السيد ياسين[2] وغيرُه عن جوهرِ العولمة، لقرأنا أنه يتحدّد بالتالي:

١ ـ انتشار المعلومات بحيث تصبحُ مشاعةً بين النّاس؛

٢ ـ تذويب الحدود بين الدول؛

٣ ـ زيادة معدّلات التشابه بين الجماعات والمجتمعات...

غير أنّ ما استعرضناه آنفاً لا ينطبق بأيٍّ شكلٍ من الأشكال على ما حَدَثَ بعد ضرب العراق وحصاره وبعد حصار ليبيا، في ما يخصّ الدولَ العربيةَ والشعبَ العربيَّ على الأقل. فقد تقلّص انتشارُ المعلومات والثقافةِ بين العرب. ولم تَذُبِ الحدودُ بين الدول العربية وإنّما زادتْ وتحصّنتْ بترسانةٍ أميركيّةٍ ذاتِ وجودٍ عسكريٍّ مباشر؛ بل يجري الحديثُ يومياً عن مخططاتٍ «عولمية» لتجزئة العراق نفسه. وأخيراً فإنّ حصار البلدين لم يؤدِّ إلى زيادةِ معدّلات التشابه بين المجتمع العربي والمجتمعات الأخرى، بل على العكس أدّى إلى تعميق الخلافات بخلقِ ردودِ فعلٍ عربيّةٍ ـ لا عراقية أو ليبية فحسب ـ تتشبّث بالخصوصيّة الثقافية، وأدّى أيضاً إلى تباعدٍ فيما بين المجتمعات العربية نفسها.

* * *

نأتي إلى **العائق الثاني**، وهو في رأيي دعمُ الولايات المتحدة، التي تنادي بالعولمة و«القرية العالمية»، لبعض الأنظمة العربيّة (وغير العربية) التي ليس لها سجلٌّ ناصعٌ على صعيد تعاملها مع المثقف والكِتَاب. فمقابلَ وعودِ العولمةِ بالحريّة وتفتيق أكمام الإبداع، ومقابلَ ادّعاءِ أدعيائها بأنها تنطوي ـ بحسب كلام جلال أمين[3] ـ «على عمليةٍ تُحرّر [الإنسانَ] من ربقة الدولة [وتنقلُه] إلى أفق الإنسانية الواسع»، نجد أنّ بعض الأنظمة الصديقة للولايات المتحدة تواصل منعَ عددٍ من المطبوعات العربيّة من دخول أراضيها. ولا أريد أن أنكأ جروحاً نحن في غنًى عن نكئها هنا، ولكنْ يكفيني أن أضرب مثالاً على مقصدي، وهو مصادرة بعض الأقطار العربية لمجلة **الآداب** أكثرَ من خمسَ عشرةَ مرةً خلال الفترة الممتدة بين ١٩٩٤ و١٩٩٦، إمّا بسبب بحثٍ تَرْجَمَتْهُ لنعوم تشومسكي أو بسبب افتتاحيةٍ أو مقالةٍ تدين السّلامَ المزعوم مع «إسرائيل». فكيف يُطالبُنا بعضُ الغربيين بالدخول إلى عصر العولمة والتحرّر من الدولة، في الوقت الذي يواصلون فيه دعمَ القمع النظامي العربي والدولةِ البوليسية العربية؟ إنّ هذه لَمُفارقةٌ أخرى أطرحها عليكم للتأمّل، لا للاستفزاز.

* * *

أما **العائقُ الثقافي الثالث** فهو إغراقُ السّوق بـ «ثقافة شبابيّة» هائلة غابتْ غياباً شبهَ كلّي عن المكتبات العربيّة، ولاسيّما للشبّان والشابات الذين تتراوح أعمارُهم بين الحادية عشرة والخامسة عشرة. والمعلوم أنّ الولايات المتحدة ـ كما يقول بول سالم[4] ـ قد طوّرتْ «صناعةً ثقافيةً واسعةً موجّهةً إلى الشبان والأحداث الأميركيين» الذي يتمتّعون إجمالاً بدخلٍ هامٍّ ولا يتحمّلون ـ في الوقت نفسه ـ مسؤولية عَوْلِ أهاليهم. ولم تكتفِ الولايات المتحدة بنشر هذه الثقافة في بلادها، بل عمدتْ عبر الأقمار الصناعية إلى تصديرها

---

١ ـ راجع مجلة **الشاهد** (قبرص، بيروت)، (نيسان ١٩٩٨)، ص٣١.

٢ ـ السيد ياسين: «في مفهوم العولمة»، مجلة **المستقبل العربي** (بيروت)، العدد ٢، ١٩٩٨، ص ٧.

٣ ـ جلال أمين: «العولمة والدولة»، المصدر السابق، ص ٣١.

٤ ـ بول سالم: «الولايات المتحدة والعولمة»، مجلة **فكر ونقد**، مارس ١٩٩٨، ص ٨٤.

تلفزيونيّاً إلى بقية أقطار العالم؛ ومن أشهر البرامج التي تحضرنا في هذا السياق: 90210 Beverly Hills وHappy days و Friends. وهي برامجُ يجمع بينها عشقٌ للأزياء الخاصّة بالشباب، وتمجيدٌ للفرديّة، وولَعٌ بالاستهلاك، وتخطٍّ لما يَعتبره المجتمعُ التقليدي في الولايات المتحدة وهنا انفلاتاً أخلاقياً، كما يجمع بينها اعتمادٌ على النَّفْسِ في مواجهة مصاعبِ الخارج وإحباطاتِه. فهي برامج، كما نرى، فيها ما يناسب مجتمعاتِنا العربيّة، وفيها ما لا يُناسبه. فمبدأ مسؤولية المرء عن أعماله، في رأيي، واجبٌ على كل شابٍ وشابّة عربيَّين؛ وتحدّي بعض التقاليد مسألةٌ ضرورية وإنْ كان يمكن اعتمادُ وسائل مخالفةٍ أحياناً لما نجده في البرامج الأميركية. ولكنّ تبنّي نمطِ الاستهلاك بالشكل الذي نراه في هذه البرامج لا يمكن أن يناسبَ مجتمعاً عربياً لم يصل بَعْدُ إلى أن يكون مجتمعاً **إنتاجياً** كالولايات المتحدة. فمازال مبدأ الادِّخار لازباً للمجتمع العربي؛ ومازال مبدأ الاستثمار وأخذِ المستقبل بعين الاعتبار مبدأً ضرورياً لنهضة أيِّ مجتمعٍ عالمثالثيّ. غير أنّ غياب البرامج التلفزيونية الشبابية العربيّة أوّلاً، و«الزَّخّ اليوميّ لملايين الصور [الأميركية] الجذّابة»[1] ثانياً، إنّما ينتج عنهما أحدُ أمرين:

أ ـ «شلُّ مَلَكَةِ التحوّط والتساؤل»[2] لدى المشاهد العربي، كما يقول عبد الإله بلقزيز، و«وأدُ حاسّةِ النقد» عنده[3]، و«تسطيحُ الوعي» ـ كما يقول الجابري[4] ـ بتوجيهِهِ وِجْهَةَ الاستهلاكِ الخاوي؛

ب ـ رفضُ **كلِّ** ثقافةٍ شبابية، بل رفضُ كلِّ ما يأتي للشباب من الغرب، بحججٍ هي في النهاية حججٌ ماضويّةٌ تُنكِر كلَّ تحرُّر.

* * *

أما **العائقُ الثقافيُّ الرابع** الذي أرى أنّ العولمة تنصبه من حيث طموحُها إلى تسويد نمطِ قيمٍ واحدةٍ غربيّةِ التمركز على مجمل الكرة الأرضية، فهو رُدود الفعل الثقافية العربية. وهي ردودٌ يمكن تقسيمُها إلى أربعة أنواع:

أ ـ إنتاجُ كتبِ أطفالٍ مغرقةٍ بالايديولوجيا، تدفع كثيراً من الأهل ـ اللبنانيينَ على الأقلّ ـ إلى شراءِ كتبِ أطفالٍ أميركيةٍ أو إنكليزيةٍ أو فرنسيّة يَرَوْن أنها تلامس **حساسيّةَ** الطفل لا **إرادةَ** الكاتب وحده. بل لطالما سمعتُ ـ وأنا أبٌ لطفلةٍ جميلةٍ في الثالثة من العمر ـ أقول: لطالما سمعتُ أمّهاتٍ يزعمن أنْ لَيْس ثمة أصلاً **ثقافةٌ عربيّةٌ** يمكن أن تلائم الأطفال! وأنا هنا لستُ ضد كتب الأطفال العربية التي تحاول أن تَبُثّ شيئاً من الوعي الوطني أو القومي أو الديني، كما أنّي لستُ غافلاً عمّا قد يكتنف بعضَ كتب الأطفال الأميركية نفسها من إيديولوجيةٍ مقنَّعة[5]. ولكنّي لا يمكن إلاّ أن أرى في كثيرٍ من كتب الأطفال العربيّة عيوباً هائلة لا أشك في أنها ردُّ فعلٍ على واقع الهيمنة الثقافية الغربيّة، أو الاختراقِ الثقافي الغربي، أو ما شئتم من مسمّياتٍ أخرى تدلُّ بطرفٍ خفيّ أو واضح على ما أصبحنا نسمّيه اليوم ـ خطأً أو صواباً ـ بـ «العولمة الثقافية». ومن أهم العيوب: تضخيمُ الذات العربيّة، وتجاوزُ نقائصِ العرب في تاريخهم القديم... على نحو ما نرى ذلك أحياناً في سلسلة **بطولات عربية** الصادرة عن دارنا، دار الآداب، حيث يتبدّى القادةُ العربُ القدماءُ أبطالاً مثاليين، لكنهم مشبَعُون بذكوريّة متعالية وبرؤيةٍ تقليديةٍ للمرأة لا ترى فيها إلا الشرفَ الذي ينبغي صونُهُ، أو المظلومَ الذي يجب الدفاعُ عنه، أو الحرمةَ التي تَلزم حمايتُها من الانتهاك[6]، أو لا يجد في المرأةِ إلا رمزاً (أوَلَيست إنساناً؟) للأرضِ ولفلسطين المغتصَبة وللدفءِ والفيضِ والسخاءِ والخصوبة[7]. ومن عيوب بعض هذه الكتب حثُّها الطفلَ على مواجهة المصاعب بالعودة إلى الماضي؛ ولكنها ليست عودةً بالمعنى الذي فهمه بعضُ النهضويين، بل بمعناها النكوصيّ والحنينيّ. ومنها، أخيراً لا آخراً، محاولةُ إقحامِ مفاهيمَ لا تنسجم ووعيَ الطفلِ؛ وأنا هنا أستعيدُ كتباً شهيرةً لزكريا

---

١ ـ عبدالإله بلقزيز: «النظام الإعلامي السمعي ـ البصري والاختراق الثقافي: نحو استراتيجيّة جديدة للدفاع الذاتي»، ضمن كتاب: **إشكالية العلاقة الثقافية مع الغرب** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧)، ص ٢٢٩.

٢ـ ٣ ـ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

٤ ـ محمد عابد الجابري: «العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات»، مجلة **المستقبل العربي**، العدد ٢، ١٩٩٨، ص ١٧.

٥ ـ ومن مظاهر هذه الايديولوجية: الإيهامُ بالمساواة العِرْقية، مع تضمينٍ دونيّةِ العِرْق الأسود وتفوُّقِ العِرْق الأبيض. ومنها أيضاً الإلماعُ إلى تخلُّف ابن الصحراء وتقدُّمِ «الإسرائيليّ»...

٦ ـ راجع في هذا الصدد كتاب سليمان العيسى، ضمن سلسلة «بطولات عربية»، وعنوانه: **لَبّيكِ أيّتها المرأة** (بيروت: دار الآداب، د. ت.).

٧ ـ راجع في هذا الصدد كتيّباً للأطفال بعنوان: **هي**، من تأليف ورسوم حلمي التوني (بيروت: دار الفتى العربي، د.ت.).

تامر، ككتاب **البيت**، إذ إنني لا أعتقد أنّ من مصلحة الوعي الثقافي العربي أن يُقحِم على عقلِ ابن السنواتِ الثلاثِ أو الأربعِ مبدأً خطيراً كحمل السِّلاح، حتى لو كان ذلك خدمةً لقضيّةٍ إنسانية وقوميةٍ عظيمةٍ كتحرير فلسطين.

ب ـ يُخيَّل إليّ أنّ هناك عدداً متزايداً من الروائيّين العرب قد لجأوا إلى الكتابة لجمهورٍ «مُعَوْلَم»، أي لجمهورٍ يشكّل القارئُ الغربيُّ والجامعةُ الغربيّةُ والمؤسساتُ الغربيّةُ المانحةُ للجوائز الأدبيّة جزءاً رئيساً من أهدافه. ولا غرو أنّ طموحَ مثلِ أولئك الكتّاب هو طموحٌ مشروع في حدِّ ذاته، ولكنّ المشكلة أنّه قد يُخِلّ بـ «منطق الرواية»، أي بأدبيّتها أو فنّيّتها. فلطالما يفاجأُ القارئُ بحديث الكاتب المضمر عن مأساة اليهود، أو عن سلمان رشدي، أو عن تهجير اليهود العرب، أو عن ختان الإناث؛ وكلُّ ذلك دونَ أيِّ مناسبة تفرضها طبيعةُ النص الروائي وسيرورته. وأنا أرى أنّ تقلُّص الجمهور العربي القارئ ـ وقد سبق أن رأينا أنّ هذا التقلص يُعْزى في جانب رئيسٍ منه إلى الحصار الذي فرضته الولاياتُ المتحدةُ على العراق وليبيا ـ ربما دَفَعَ بعضَ الكتّاب إلى السعي وراء جمهورٍ أوسع قد يجدُه في الغرب، ويجد معه تعويضاً معنوياً (وربّما ماديّاً) عن جهده المهدُور عربياً. ولكنْ أيّاً يكنِ السببُ، فإنّي أرى أنّ دغدغةَ مشاعر الغرب ومؤسساتِه العولميّةِ إنّما تُسيء إلى سلامةِ أو تكاملية (integrity) النصّ الإبداعي العربي، بل تسيء إلى مزايا هذا النص التي هي من أسس «خلخلةِ نزعةِ المركزيةِ الأوروبية» التي تحدّث عنها جابر عصفور في كتابه الجديدِ **آفاق العصر**[1].

ج ـ تشبُّث بعض العرب بتراثٍ مُوغلٍ في «نقاوته» و«خصوصيّته» المتوهَّمة، وإنْ تعارَضَ ذلك مع أبسط قواعد العقل والمنطق. بالأمس تحدّثَ أستاذي محمود أمين العالم[2] عن أنّ هناك قيماً غربية كـ «حماية البيئة» و«حقوق الإنسان» و«حقوق الطفل» قد أَضْحَتْ ـ بفضل العولمة ـ قيماً إنسانيةً عامّةً؛ وعدَّ ذلك من إيجابيات العولمة. وهو مصيبٌ في ذلك كلَّ الإصابة. ولكنْ ألا نجد أيضاً كثيراً من عامّةِ العرب يتباهَوْنَ اليومَ بإهانة البيئة رداً على دُعاةِ حماية البيئة في الغرب؛ ويسخرون من مبدإ حقوق الإنسان لأنهم يَرَوْن كيف يستخدم الغربُ معاييرَ مزدوجةً حين يتعلّق الأمرُ بممارساتِ «إسرائيل» القمعية؟

ويكرّر هؤلاءُ العرب ممتعضين: كيف يتحدث الغربُ عن حقوق البيئة ويصدِّرُ إلينا [في لبنان على الأقل] براميلَ النفايات السامّة؟ وكيف يتحدثُ عن حقوق الإنسان ويزوِّدُ الكيانَ الصهيونيَّ بأعتى أسلحة الدمار الشامل؟ غير أنّ منطق هؤلاء العرب ـ في رأيي ـ منطقٌ خطيرٌ لأنّه قد يؤدّي إلى نسفِ المبادئ الإنسانية العامّة بدلاً من خلخلةِ الأساس المركزيِّ الغربيّ الذي تقوم عليه، وبدلاً من الاكتفاءِ بفضح النفاقِ الغربيّ المقيت. ولكنّه منطق موجودٌ على كل حال، وربّما يزدادُ انتشاراً يوماً بعد يوم، مشكّلاً مَقْتلاً آخرَ من مقاتل التنمية الثقافية وثنائيةً ثقافيةً متفاقمةً بين الذات والآخر.

ما العمل؟

في الختام سأحاول أن أطرح بعض الاقتراحات التي قد يخفِّفُ تطبيقُها من مخاطر العولمة، بل قد يَقْلبها من نقمةٍ إلى نعمة أحياناً. فأما الاقتراحات الخمسة الأولى فلا يحتاج تطبيقُها إلى استخدام وسائط العولمة، بل يحتاج إلى نشاط القطاعيْن العام والخاصّ. غير أنّ الاقتراحات الثلاثة الأخيرة لا يمكن تطبيقُها دون استخدام تلك الوسائط.

١ ـ حريّة «سُيُولة» المنشورات العربيّة، دون قيد أو شرط أو رقابة. وتشمل هذه الحريّة تخفيضَ قيود «الترانزيت» على الكِتاب، وتخفيضَ التعرفةِ البريدية عليه، و«منحَهُ حسماً كافياً على الخطوط الجوية الوطنية في بلدِ تصديره»[3].

٢ ـ حريّة تواصُلِ المثقفين العرب واحدِهِم بالآخر، دون قمعٍ أو حَجْز أو تفتيشٍ أو إهانة. ففي مواجهة العولمة الأميركية، وفي مواجهة توحُّد الأسواق الأوروبية لبناء «عولمة» مضادّة، لا بديل عن حريّة سيولة الصناعيين والمنتوجاتِ العربية، وفي طليعتها حريّة تنقّل صُنّاع الأفكار ومنتجاتهم الثقافية.

٣ ـ إدخالُ برامجَ لتسويقِ الكتب ضمن الخطط الاقتصادية للدول العربيّة، وضمن برامجنا الإعلامية. فليس قَدَراً أنْ تُواصِلَ آلياتُ الإشهار المركزيةِ الغربيّةِ الاستهلاكيةِ الترفيهية استئثارَها بعقولنا، إنْ نحن خفَّفنا ـ أو ألغيْنا ـ الحدودَ أمام الكِتابِ والكاتب في الوطن العربي (بحسب الاقتراحين الأوّلَيْن)، وإنْ نحن شَحَذْنا في عقولِ الناس أهميةَ المطالعة (بحسب هذا الاقتراح الأخير)؛ علماً أنّ المطالعةَ ـ

---

١ ـ جابر عصفور: **آفاق العصر** (دمشق: دار المدى، ١٩٩٧)، ص ١٠٧.

٢ ـ وذلك ضمن فعاليّات مؤتمر «العولمة وقضايا الهوية الثقافية»، القاهرة ١٤ نيسان (أبريل) ١٩٩٨.

٣ ـ محمد عدنان سالم: **هموم ناشر عربي** (بيروت: دار الفكر المعاصر؛ ودمشق: دار الفكر، ١٩٩٤)، ص ٣٤.

ويا للمفارقة! ـ لم تندثرْ في الدولِ الصناعية الكبرى برغم جبَروتِ التلفزيون والحواسيب.

٤ ـ تشكيل لجنةٍ عربيّةٍ لنشر كتبٍ للأطفال تستثيرُ فضولَهم إلى المعرفة، وتقوّي حساسيّتَهم بالأشياء من حولِهم، وتوسع آفاقَ خيالهم... بدلَ أن يبقَوْا أسرى العولمة الإشهاريّة ذاتِ الأيديولوجيا الخفيّة أحياناً، أو أسرى الكتبِ المؤدلجة قَوْمياً وإسْلامَوياً في أسوإِ الأحوال، وأسرى «التلقين» و«التسميع» في أحسنها[1].

٥ ـ حثُّ دُوَلِنا العربية ليلَ نهار، لا على التخلّي عن واجباتها لصالح الشركات المتعدّية الجنسية، بل على تنكّب أعباءِ التنمية الثقافية: كمحو الأميّة، وإلزاميةِ التعليم الابتدائي والتكميليّ والثانوي على الأقلّ، وتعليم اللغات الأجنبية، ودعم القطاعاتِ الثقافية الخاصّة. فمازالت الدولةُ العربيةُ في بلادنا هي الوسيلة الأولى للتنمية، شرطَ أن تحترم اختلافَ الآراء ومبدأ تداول السلطة. ذلك أنّ حرية السوق وحدها لن تقبر الفقرَ، ولن تُرسي دعائم التطوّر الثقافي.

٦ ـ إقامةُ دوراتِ تدريبٍ على الحواسيب والانترنت. فلا شكّ أن استخدامَ الانترنت يوفّر معلوماتٍ هائلةً قد تساعد على تفكيك خطابِ القوة وخطاب المركزية الأوروبية والأميركية نفسه. ولا أذيع سرّاً إذا قلتُ إنّ بعضَ المعلومات التي أستخدمُها أنا شخصيّاً لإدانة سياسة الولايات المتحدة الأميركية، قد أستقيها من الرسائل الإلكترونية التي ترسلها منظماتٌ دوليةٌ معارضة[2]... حتى شعرتُ أنّ ماركس وانجلز نهضا من قبرهما ذاتَ لحظة، فبدّلا قولَهُما الشهيرَ عن الرأسمالية ليصبح: «إنّ العولمة قد تحفر قَبْرَها بنفسها»![3]

٧ ـ ضرورةُ قيام كلّ دوريّةٍ عربية، ولاسيّما الثقافية المستقلّة، بإنشاء «صفحة منزل» home page تَعْرِض فيها أهَمّ ما في هذه الدورية وما قد تخال أنه قد يسبِّب في منعها من دُخُول هذا القطر العربيّ أو ذاك. فذلك يُسهم في إنشاء شقوقٍ، ولو طفيفةٍ، في جدار الرقابة العربيّة. ومع ذلك فمن الممكن أن تمنع دولةٌ مّا الإنترنتَ بالمطلق، وإذّاك فلن يجدي هذا الاقتراحُ. كما أنّ قِلّةً قليلةً فحسب ستتاح لها ـ بسبب فقرها المادي أو عدم تملكها لحاسوبٍ ـ فرصةُ استخدامِ الانترنت للاطّلاع على هذه الـ home page أو على المقالِ المعارض. ولكنّ عزاءنا هو في أن يعمِّم العارفون باستخدامِه هذه المعرفة التحتية «السامزداتية» على الآخرين بالتصوير أو النقلِ الشفويّ.

٨ ـ ضرورةُ إقناع بعضِ المتموّلين المتعلِّمين من ذوي العلاقات القريبة من هذه الحكومة العربية أو تلك بإنشاءِ محطةٍ تلفزيونيةٍ فضائيةٍ عربيّةٍ تقدِّم حالاتٍ متقدّمةً من الوعي الثقافي والحضاريّ والدينيّ تكون بديلاً عن نمطِ الاستهلاك وقيمِ الحريةِ الفرديةِ الانعزالية المنتشرةِ في البرامج الأميركية، وبديلاً في الوقت نفسِه عن سخافةِ معظم القنواتِ الفضائية العربية الحاليّة التي تهدف إلى تسطيح الوعي (وتنفيطه؟) بالتسالي والفوازير والطقاطيق.

أنا لا يمكن أن أكونَ ضدَّ التسلية والترفيه، ولا أريد تلفزيوناً عربياً فضائياً عابساً ومقطِّباً. ولكنْ اترانا نحلم إنْ نحن طالبنا بحدٍّ أدنى من الاحترام لقيم الثقافة والعقل في التلفزيون؟ وهل ترانا نحلم أنْ نرى برامجَ فضائيةً ذاتَ نفَسٍ قوميٍّ لا يكون فجّاً، وذاتَ روحيةٍ ديموقراطيةٍ لا تكونُ أميركيّةَ التعليب؟

* * *

ولكنّ الأهمَّ من ذلك كله هو أنْ نبني الأرضيّةَ العلميةَ التي تجعلنا نفيد من إيجابيات العولمة القليلة، وتقينا سلبياتِها وأخطارَها الكثيرة.

فمادامَ الحصارُ مضروباً في الوطن العربيّ على الكاتب والكِتَاب، ومادامتِ الأُميّةُ منتشرةً، ومادامت معرفةُ أكثرنا بالإنكليزية (لغةِ الانترنت الأولى) ضعيفةً أو معدومةً، ومادامت الثقافةُ سلعةً محتقرة، فإنّ استخدامَ وسائطِ الانترنت وغيرِه لن يُجدي كثيراً.

إنّ على العرب أن يدخلوا عَصْرَ حقوقِ الإنسان الطبيعيةِ والأوّلية، قبل أن يهرولوا إلى عصر العولمة، وإنْ كانت وسائطُ هذه الأخيرة تعين أكثَرَنا حظْوةً على التقدُّم. فمازالت أولوياتُ التنميةِ الثقافية العربية هي هي منذ نصف قرن على الأقلّ، وفي طليعتها: الحريّة. فإلى الحريّة أولاً، وإلى الحرية ثانياً، وإلى الحرية ثالثاً، للكاتبِ والمكتوب، وللقارئ والمقروء!

القاهرة

---

١ ـ راجع حديثَ أستاذة اللغة العربية سلمى منيمنة إلى عزّة شرارة بيضون في مقالٍ للأخيرة بعنوان «كيف يعلِّمون؟ كيف يتعلّمون؟» (مجلة **أبواب**، العدد ١٥، ١٩٩٨، ص ١٨٩).

٢ ـ راجع مثلاً افتتاحية العدد ٣/٤، ١٩٩٨، من **الآداب**، وعنوانُها «النظامُ العالمي الجديد في العراق ولبنان»، وتحديداً الصفحات ٢ ـ ٤.

٣ ـ إشارة إلى قولهما في **البيان الشيوعي**: «إنّ الأسلحة التي استخدمتها البورجوازيةُ ـ للقضاء على الإقطاعيّة ـ ترتدّ اليومَ الى صدر البورجوازية نفسها...» (راجع الجزء الأوّل من مختارات **ماركس وانجلس**، دار التقدم، موسكو، ص ٥٨).